من لسان العرب إلى لسان الترند: سقوط الحضارة في ثوانٍ

02 أغسطس 2024

فكر وتحليل

8 دقيقة قراءة

من لسان العرب إلى لسان الترند: سقوط الحضارة في ثوانٍ

فـي زمـن "إنسـتغرام" و"تيـك تـوك" و"سـناب شات"، يبدو أنّ الكتاب قد أصبح أثرًا بعد عين. أمّا العقل العربيّ، فيلوح كما لو أنّه يتحوّل، بسرعة البرق، إلى مجرّد متلقٍّ سلبيّ لأجندات يسارية متطرفة مغلّفة بصور براقة وفيديوهات قصيرة. هـل نحـن إزاء ثـورة رقميّـة أم انتحـار حضـاريّ مبرمج؟

لنتأمّـل للحظـة فـي هـذه المفارقـة الصارخـة: بينمـا تتسـابق الـدول المتقدّمـة علـى تطـوير منـاهج تعليميّـة تعـزّز مهـارات التفكيـر النقـديّ، نجد شبابنا العربيّ غارقًا في بحر من المحتوى المشبـع بأفكـار راديكاليـة يساريـة متطرفـة وبشعـة تقـوّض القيـم التقليديـة والهويـة

الثقافيـة. فهـا هـو "إنسـتغرام" يتصـدّر قائمـة التطبيقـات الأكثـر تحميلًا فـي العـالم بـ166 مليون تحميل في الربع الأول من 2024 وحده، يليـه "تيـك تـوك" بـ137 مليـون تحميـل. وكـأنّ التـاريخ يعيـد نفسـه بصـورة أكثـر مأساويّـة: فمـا عجزت عنه الحروب الثقافية التقليدية، تنجح فيه اليوم خوارزميات تطبيقات "ذكيّة" تحت غطاء الحرّية والتواصل.

وهنا، دعونا نتوقف لحظة لنتأمل بسخرية مرة هـذا المشهـد السوريـالي: العقـل الـذي شكّلـه الكتاب، ذاك الذي أنتج أمثال الجابري وأدونيس وإدوارد سعيد، يُحتضر اليوم أمام أعيننا. وفي المقابل، يولد أمامنا "العقل التيك توكي"، ذاك

الكـائن العجيـب القـادر علـى اسـتهلاك آلاف المقـاطع فـي اليـوم دون أن يحتفـظ بفكـرة واحدة. لعلّ الجابري، لو كان بيننا اليوم، لكتب "نقد العقل التيك توكي" بدلاً من "نقد العقل العربي". أما أدونيس، فربما كان سيرثي حال الشعر العربي في عصر الهاشتاغ والايموجي. وماذا عن إدوارد سعيد؟ هل كان سيكتب عن "الاستشراق الرقمي" وكيف تُعاد صياغة الشرق فـي مخيلـة الغـرب عـبر خوارزميـات التواصـل الاجتماعي؟

ولنضف إلى هذه القائمة المفكر المغربي عبد الله العروي، الذي حذّر منذ عقود من "أزمة المثقفين العرب". ها هو اليوم يشهد تحقق

نبوءته بأبشع صورها: أزمة مثقف عربي لم يعد له وجود في عالم أصبح فيه "المؤثر" على سناب شات هو المثقف الجديد لجيل بأكمله. أو الفيلسوف المصري حسن حنفي، صاحب مشروع "التراث والتجديد"، كيف كان سيقيّم "تجديداً" يتم عبر تطبيقات تمحو الذاكرة الثقافية بدلاً من إحيائها؟

بيد أنّ المشكلة أعمق من مجرّد انتشار تطبيقات. ذاك أنّ ما نشهده هو حرب خفية على القيم والهويات، تقودها خوارزميات مبرمجة لترويج أجندات يسارية متطرفة. وهنا يجدر بنا التوقف عند الفارق الصارخ بين "دويين" الصيني و"تيك توك" العالمي. فـ"دويين"،

النسخة الصينية من التطبيق، يخضع لضوابط صارمة تهدف لحماية الشباب وتعزيز القيم الوطنية. على سبيل المثال، يقيّد التطبيق استخدام الأطفال دون 14 عامًا لـ40 دقيقة يوميًا فقط، مع حظر الوصول بين الساعة 10 مساءً و6 صباحًا. الأهم من ذلك، أن المحتوى المقدّم يركز على التعليم والثقافة، مع دفع المواد العلمية والتاريخية للواجهة.

في المقابل، نجد "تيك توك" العالمي - وكذلك "إنستغرام" و"سناب شات" - يغرق مستخدميه، وخاصة في الغرب والعالم العربي، بسيل لا ينتهي من المحتوى المروّج لأفكار تقوّض الأسرة التقليدية، وتشكك في الهويات

الوطنيـة، وتـدعم حركـات اجتماعيـة راديكاليـة. وكـأنّ هنـاك مخططًـا واعيًـا لتـدمير النسـيج الاجتماعي والثقافي من الداخل، بينما تحصّن الصين شعبها من هذا الخطر.

والمفارقة المثيرة هنا هي مصلحة الصين في انتشـار هـذه التطبيقـات عالميًـا، رغـم تقييـدها محليًـا. فبينمـا تحمـي بكيـن شبابهـا، تسـتفيد اقتصاديًـا وجيوسياسـيًا مـن إضعـاف منافسـيها الغربييـن وحلفـائهم عـبر هـذه الأدوات الناعمـة. إنها استراتيجية ذكية تجمع بين الحماية الداخلية والتوسع الخارجي.

والحـال أنّ تراجـع القـراءة فـي العـالم العربـيّ

ليس ظاهرة جديدة. لكنّ ما يجعل الوضع اليوم أكثر خطورة هو اقترانه بهذا الغزو الأيديولوجي المنظم. فإذا كانت القراءة تبني عقولًا ناقدة قادرة على التمييز، فإنّ هذه التطبيقات تخلق أجيالًا مبرمجة على تبني أفكار غريبة عن مجتمعاتنا وقيمنا.

ولنتأمل في هذه الأرقام المفزعة: في السعودية، على سبيل المثال، يقضي المستخدمون ما يقارب 7 ساعات و9 دقائق يومياً على الإنترنت، معظمها على تطبيقات التواصل الاجتماعي. بل إنّ 76.5% من سكّان المملكة يستخدمون "سناب شات" وحده! في المقابل، تشهد مبيعات الكتب تراجعاً مستمراً.

ولنقارن هذا بما كان عليه الحال قبل عقود: في الستينيات والسبعينيات، كانت المكتبات العامة في القاهرة وبيروت ودمشق تعج بالقراء. اليوم، تحولت هذه المدن إلى غابات من الهواتف الذكية، كل شاشة منها نافذة صغيرة على عالم ضحل من الترفيه السطحي.

ولا يقتصر الأمر على هذه التطبيقات فحسب. فها هو "تويتر"، منصة كانت تُعدّ يوماً منبراً للنقاش الفكري، تتحول إلى ساحة للتغريدات السطحية والآراء المتسرعة والبحث عن المتابعين بأي ثمن. والنتيجة؟ جيل كامل فقد القدرة على قراءة مقال مطوّل أو الانغماس

فـي كتـاب. بـل إن الأمـر وصـل إلـى حـد عجـز الكثيريـن عـن كتابـة بضعـة أسـطر متماسـكة. وكأننا أمام ظاهرة "ضمور عقلي" جماعي، حيث تتقلـص قـدرة الشبـاب علـى التركيـز والتحليـل المعمـق لصالـح الاسـتهلاك السـريع للمعلومـات السطحية.

وهكـذا، نجـد أنفسـنا اليـوم فـي مراسـم دفـن الكتـاب العربـي. تخيلـوا معـي هـذا المشهـد السوريالي: نعش كبير يحمل آخر نسخة مطبوعة مـن "لسـان العـرب" لابـن منظـور، يتبعـه مـوكب حزيـن مـن الكتّـاب والمفكريـن، بينمـا يقـف علـى الجانب جمهور من الشباب، كل منهم منهمك في تصوير المشهد لبثه مباشرة على "تيك توك" مع

موسيقى راقصة في الخلفية. وفي الخلفية، نسمع صدى صوت طه حسين يردد: "مستقبل الثقافة في مصر"، لكن الصوت يتلاشى وسط ضجيـج الإشعـارات والتنبيهـات مـن الهواتـف المحمولة.

لكـنّ الأمـر الأكثـر إثـارة للقلـق هـو كيـف أن خوارزميات هذه التطبيقات تعمل على إعادة تشكيل وعي مستخدميها وفق أجندات محددة. فهـي لا تكتفـي بتقـديم محتـوى سـطحي فحسب، بل تعمل على ترسيخ أفكار تتعارض مع قيمنا الأصيلة وهويتنا الثقافية. والأدهى من ذلك أنّ المحتوى العربي على هذه المنصات ضئيل نسبيًا، ما يعني أنّ شبابنا يتعرّض لتأثيرات

ثقافية غريبة بشكل متزايد.

فـي هـذا السـياق، يصـبح دور المؤسـسات التعليمية والثقافية أكثر أهمية من أي وقت مضى. فهل ستتمكن جامعاتنا ومراكزنا الثقافية من تطوير مناهج تجمع بين التراث والحداثة، وتعلّم أجيالنا كيفية التعامل النقدي مع التكنولوجيا؟ أم أننا سنكتفي بمشاهدة مراسم دفن ثقافتنا عبر بث مباشر على "فيسبوك لايف"؟

لعل الإجابة تكمن في قدرتنا على إحياء روح النقد والتفكير العميق التي ميزت أعلام فكرنا العربي، قبل أن يصبح "التفكير العميق" مجرد

هاشتاغ عابر على منصات التواصل الاجتماعي. وإلا، فإن مستقبل الثقافة في عالمنا العربي قد يكون مجرد سلسلة من مقاطع "التيك توك" القصيرة، تروي قصة حضارة عريقة لم تعد تفهم نفسها.